

عصر الحقاء في مصر الإسلامية

٤ - الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ في هذا التبت الدموي الحافل من خواص الحاكم وصفاته ؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلاريب عنوان اجترأ مروع على الشر ، وشغف واضح بالسفك واحتقار بين للحياة البشرية ؛ ولكنها لم تكن نزعاً دموية فقط ، ولم تكن بالأخص دون غاية . كان الارهاب في نظر الحاكم وسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل ؛ فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فان القتل أصبح وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بإجرة تدمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين ، فان إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع . وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة ، وتحمده الأطماع المتوثبة في مهدها ، وتندثر الزعماء ورجال الدولة بالخشوع المطلق لهذا الفتى الجريء . ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة إلى تأييد سلاطنتهم ، وكان الحاكم طاغية قوي النفس والشكيمة . وقد كانت الأهواء والنفورات الصنيعة التي تبيح بها نفس الحاكم تمد هذه السياسة الدموية بروح من الاسراف والقسوة ، ولكنها كانت في نظره قبل كل شيء وسيلة من وسائل الحكم ، وكان لها بلاريب أكبر الأثر في توطيد سلطة الحاكم ، وسحق عناصر الخروج والثورة التي تبرص عادة بأشكال الطغاة المرفرفين

هذا ويفسر لنا بعض المؤرخين المسلمين لاسراف الحاكم في القتل بأنه كان تقريباً منه « لرحل وطالعه المريح » ، وقد كان الحاكم شغوفاً بالملك ورصد النجوم كما سنرى (١) ، ولكنها لا نستطيع أن نسيخ هذا الرأي من الوجهة التاريخية ، فليس في

(١) هذا هو قول تزاوغلي في مرآة الزمان (النجوم الزاهرة من ١٧٧)

أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

ثم دخل رجال أنكرهم عمرو ، فقال : ما هولاء ؟ قالوا : يُعسكونك ، فان الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أ كفيكم ذلك من نفسي !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذي يريد قتل نفسه كيف صنع عمرو ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر ، وكيف احتمل . إنه انصرف بحسه إلى النفس فانبطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهلل ليقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وَغَمِرَتْ حواسه وأعصابه بالنور الآلهي من معنى التكبير والتهليل ، فقطع القاطع كعبه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وَضَعَ عليها المنشار ونشرها و عمروة في التكبير والتهليل . ثم جرى بالزيت مغلياً في مغارف الحديد فحُفِّمَ به مكان القطع ، ففُشِيَ على عمروة ساعة ثم أفاق وهو يحسح العرق عن وجهه ، ولم يسمع منه في كل هذه الآلام الملاحقة أنه ولا آهته ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء ما لا أصبر عليه ؟ »

قال المسيب : وأرُهِفَ بأس الرجلِ الضعيف وقوى جأشه وانبمشت فيه الروحُ إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحاني وعرف أن ما لا يمكن أن يدرك ، يمكن أن يترك وجاء هذا العقل الروحاني فرَّ بالمنشار على اليأس الذي كان في نفسه فقطعه ، فمادعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكب على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؟ « إن كل ذلك إلا كما ترى قبضة من التراب تتكبر ، وقد نسبت أنه سيأتي من يكنسها » (١)

ماذا يصنع الانسان إذا غلط في مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرى الصواب ويجهد في الرجوع اليه ويصبر على مايناله في ذلك ؟ وماذا يصنع الانسان إذا غلطت فيه مسألة ؟

سنة ١٩٧٧

(طنطا)

(١) ستم القول في الانتصار إن شاء الله في المقال التالي

سيرة الحاكم رغم شذوذه ، وتباين معتقداته وشغفه بالخفاء ، ما يدل على أنه كان يأخذ بمثل هذه الرسوم الوثنية المثيرة

— ٦ —

كان شغف الحاكم بالليل من أظهر خواص هذه المرحلة الأولى من حكمه . كان الحاكم بمقد مجالسه ليلاً ، ويواصل الركوب كل ليلة ، وينفق شطراً كبيراً من الليل في جوب الشوارع والأزقة (سنة ٣٩١ هـ) ، وكانت القاهرة تبدو في هذه الفترة بالليل ، كأنها شعلة مضيئة ؛ وتجري جميع المعاملات بالليل ، وتختلط حياة الجد بحياة اللو والقصف ، فتسطع الميادين والمنتديات بالوقود والزيتات ، وتفص بصنوف اللو والريح . فلما خرج الناس في ذلك عن الحد ، وباللوا في اللو والاسراف والزينة ، منع الحاكم النساء من الخروج ليلاً لكي تخف عوامل الفتنة والثوية ، ثم أمر بمنع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي ، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل ؛ وشغف الحاكم بالليل وظلمته من غريب أطواره وزغاته ، حتى لقد لبث مدى حين يؤثر الجلوس في الظلام^(١) بيد أنه يتم في نظرنا عن روح فلسفي يزيد في غموض نفسه

ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى عمد الحاكم الى إصدار طائفة من الأوامر والقوانين الدهشة التي لم يسمع بمثلا من قبل في أي مجتمع اسلامي . وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية ، وكان مما يزيد في غرابتها وغموضها بواعثها أنها كانت تصدر ثم تعفى بعد قليل وتستبدل بعكسها ، ثم يعاد صدورهما وهكذا . وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كرم المصور هذه المراسيم حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام ، واكتفوا في تحليلها بنظرية بسيطة ، هي أن الحاكم كان ذهنياً مضطرباً لا يصدر عن روية أو حكمة ، ولم تكن هذه الأوامر والاجراءات الشاذة سوى زغات مغبول لا يستقيم له منطق أو غاية . ويحسن قبل أن نناقش هذا الرأي أن نستعرض هذه المراسيم أولاً ، وأن نحاول أن نتفهمها ، وأن نستقصي بواعثها على ضوء الظروف التي كان يجوزها المجتمع يومئذ

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية . في سنة ٣٩٥ هـ ، صدرت أول

(١) ابن قزويني في مرآة الزمان (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٦)

طائفة من هذه القوانين الدهشة ، فمنع الناس من أكل اللوخية والترمس والجرجير والتوكلية والدليس ، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا في أيام الأضحية ، وحرم بيع الفقاع وعمله البتة وحرم صيد السمك الذي لا قشر له وكذلك بيعه ؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر ؛ وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن في الطريق ، أو خلف الجنائر ، وحرم عليهن التزين والتبرج ؛ وشدد الحاكم في تنفيذ هذه الأوامر ، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والأعدام . ثم حُرِّم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات بعد الغروب ، وأن يزاولوا البيع والشراء بالليل ، تخلت الطرق من المارة ، وأقفر الشوارع والميادين بالليل ، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة ؛ وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره ، وكسرت أواني الخمر وأدريت في كل مكان ، وأمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وجدت ، فطوردت في كل مكان وأعدمت حتى خلت منها كل الطرق والدور^(١) ؛ وفي هذا العام أيضاً حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة ، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم ، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب الزهومة (من أبواب القصر) ، وألا يمتشي أحد بجذاه القصر ، ثم أعفى المكارية بعد ذلك من الأمر وصدر لهم أمان خاص^(٢) وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية المصرية ، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على أشده . وفي سنة ٣٩٨ هـ صدرت عدة مراسيم جديدة ؛ فمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للتفرج ، وذلك لمناسبة نقص النيل في هذا العام ؛ وشدد في منع بيع الخمر ؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد النشاء ، فزادت المعاملات اضطراباً واشتد الأمر على الكافة ، وسرى اليهم الخوف والجزع ، واشتد الغلاء ، وتفاقت الحال بظهور الوباء ، وعصف المرض والموت ، وعجز القوت والدواء . وفي سنة أربع مائة صدرت أوامر جديدة بالتشديد في حظر الخمر وبيعها ؛ ومنع ركوب المراكب في الخليج ، وسدت أبواب القاهرة التي تلي الخليج وأبواب الدور والطاقت المظلة عليه^(٣) وعوقب الكثيرون من أجل إحراز

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ — المقرئ ج ٤ ص ٦٩ و ٧٠

(٢) المسبحي في حوادث سنة ٣٩٥ وناه المقرئ ج ٣ ص ٤٤

(٣) المقرئ عن المسبحي — ج ٣ ص ٣٨

سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم بأمر الله ، وكان حادثاً منقطع النظر . ولم يحدث قط في أي مجتمع إسلامي ، بل لم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ أن عانى النساء مثل هذه الهنّة القاسية ، وسابن الحرية على هذا النحو الشامل

وكان مما يزيد في صرامة القوانين الاستثنائية ، الشدة في تنفيذها ، وروعة العقوبات التي سنت لمخالفها ؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدير الدولة أو قائد القواد ؛ فنجد مثلاً في السجل الصادر بتعيين « غين » قائداً للقواد ومديراً للشرطة والحسبة ، (سنة ٤٠٢ هـ) تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمر وتبعية ذلك والتشديد فيه ، وفي تحريم الفقاع وبيعه ، وتحريم أكل اللوخيا والسك الذي لا تشتره ، وأننع من الفرجة والملاهي كلها ، ومنع النساء من حضور الجنائز ، ومنع بيع الزبيب والنعب والمسل الخ^(١) ، وكانت العقوبات تختلف بين التشهير^(٢) والجلد ، وتصل في أحيان كثيرة إلى الاعدام هذه خلاصة وافية لما أصدر الحاكم أو أصدر في عهده من المراسيم والأوامر الاجتماعية الاستثنائية ، بومعظمها يجعل طابع القسوة والشذوذ ؛ ولكن سنرى أنها لم تكن دون غاية ، ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة ، عن زعة نخبول أو هائم ، وأن كثيراً منها يحمل بالمعكس طابع الطرافة والحكمة ، ويرى إلى غايات بعيدة قد فطن إليها هذا الذهن الجري ، واتخذ منها مثلاً

— ٧ —

نعرض بعد ذلك إلى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هي المراسيم الدينية ، وقد كانت كالمراسيم الاجتماعية تجعل في كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض وبدأ الحاكم بهذه المراسيم الدينية لأول عهده بالحكم أيضاً . ففي سنة ٣٩٥ هـ ، أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس القيار وشد الزنار ؛ وفي سنة ٩٩ هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، ونفذت الأوامر بهدم كنيسة قامة (القبر المقدس) بيت المقدس ونهبها ، ولكن أكبر الأخبار والنصارى سموا على ما يظهر حتى عدل عن تنفيذ الهدم ؛ وفي العام التالي صدر

الفقاع واللوخية والسك الذي لا تشتره ومن أجل بيع النبيذ وإحرازه ، وكانت العقوبة تصل في أحيان كثيرة إلى الاعدام . وفي سنة اثنتين وأربعين منع النساء من زيارة القبور ، فلم ير في الأعياد بالقبور امرأة واحدة ، وحظر الاجتماع على شاطئ النيل للفرج ؛ وحرم لعب الشطرنج وعوقب المخالفون بالجلد ؛ وحظر بيع الزبيب واستيراده ، وأحرق جميع ما كان موجوداً منه ، وحظر بيع النعب إلا الأربعة أرطال فما دونها حتى لا يستعمل في صنع النبيذ ، وحظر عصره وأتلف كثير منه وأغرق في النيل أو ديس في الطرقات ، وسير المأمورون إلى الجيزة ، وكانت يومئذ عارة بمحذائق الكروم فأتلفوا كرومها ، وصودر ما كان في معاصرها ومخازنها من جرار المسل ، وكسرت وأريقت في النيل ، وحدث مثل ذلك في سائر الجهات^(١)

وفي سنة أربع وأربعين صدر مرسوم بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وأن ينفي المنجمون من سائر الملكة ، فاستغاث المنجمون بالقاضي الأكبر مالك بن سعيد الفارقي ، فمقد لهم التوبة من هذه الصناعة ، وأغفوا من قرار النقي ؛ وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين ، فهجروا الفناء وأغفوا من المطاردة ؛ وشد في قتل الكلاب مرة أخرى . وفي شعبان من هذه السنة ذهب الحاكم في معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة ، فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من مفادرة دورهن والخروج إلى الطرقات بالليل والنهار ، ومنعهن من دخول الحمامات العامة ، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن ، فاخنت النساء من المجتمع المصري ، وساده الانقباض والوحشة ، وأغلقت المتاجر التي تبيع السلع النسوية ، وساد الذعر بين النساء ، ولزمن دورهن في روعة وخشوع ، وعوقب كثير من المخالفات بالموت ؛ واشتد الأمر بنساء الكافة اللاتي ليس لهن من يقوم بأمرهن واستفتن بأولى الأمر ، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع في الأسواق إلى الدوروب ، ويبيعهن للنساء في منازلهن ، وأن يحمل الباعة أداة كالمعرفة لها ساعد طويل يعد إلى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ماتشترته ، فتناولوه وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها مطلقاً أن تدنو من وراء الباب^(٢) وعانى النساء هذه الشدة زهاء

(١) الفريرى ج ٤ ص ٨٨

(٢) التشهير هو أن يطاف بالذنب على حمار أو جمل وتعلق عليه كتابة بمغسور ذنبه ، وقد يكون عقوبة أصلية ؛ وقد يقبض بعد ذلك جلد أو إعدام

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ - الفريرى ج ٤ ص ٧٢

(٢) ابن خلكان - ج ٢ ص ١٦٧ والفريرى ج ٣ ص ٧٣ وابن

الأثير ج ٩ ص ١٠٩

بين وزرائها كثير من اليهود أو النصارى مثل الوزير يعقوب بن كلس وزير الميز ، ثم ولده العزيز ، فقد كان يهودياً ثم أسلم ، وكان أعظم وزراء الدولة الفاطمية ؛ وعيسى بن نسطورس النصراني ، ومنشا اليهودي ، وزير العزيز بالله ؛ وتولى الحكم ثلاثة من الوزراء النصارى في الفترة الأولى من عصر الحاكم ذاته ، هم الرئيس فهد بن ابراهيم ، وابن عبدون ، وزرعة بن عيسى بن نسطورس ، . وكان النصارى واليهود يتمتعون قبل عصر الحاكم بكثير من الحرية والتسامح ، ويؤذن لهم ببناء الكنائس والأديار والبيع . ولم يشد الحاكم عن هذه السياسة لأول عهده ، وكان ذلك راجعاً إلى تفوذ الوزراء النصارى ، وربما إلى نفوذ أمه النصرانية وأخته ست الملك ، وقد كانت تؤثر سياسة أبيها العزيز في الرفق بالذميين ؛ ولكن الحاكم انقلب فجأة إلى سياسة المطاردة الدينية ، وأبدى في تطبيقها منتهى الغلو والتطرف ، بيد أننا سنرى أن هذه السياسة ترجع أيضاً إلى بواعث لها خطرها وقيمتها

محمد عبد الله عنانه
المحامي

للبحث بقية
القول ممنوع

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب الطبيعة لأرسطو

أتمت لجنة التأليف طبع كتاب الطبيعة « لأرسطو »

ترجمة الأستاذ الكبير « أحمد لطفي السيد بك »

وبه مقدمة بديعة للأستاذ « سانهير »

وقد طبع في مطبعة دار الكتب على ورق جميل ويقع

في نحو ٤٥٠ صفحة من القطع الأكبر

وبهذا يكون ما أخرجته الأستاذ من كتب « أرسطو »

ونشرته اللجنة ما يأتي :

كتاب الأخلاق لأرسطو في جزئين ثمنه ١٠٠

الكون والفساد « في جزء » ٤٠

الطبيعة « » ٥٠

(وتطلب من لجنة التأليف ومن الكاتب الشهيرة)

مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى في لبس الغيار وتقلد الزنار . وفي سنة ٤٠٢ صدر مرسوم شامل ضد النصارى واليهود ، يقضى بأن يلبسوا العمام السود ، وأن يملق النصارى في أعناقهم صلباناً ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع في ذراع ووزنه خمسة أرتال ، وأن يملق اليهود في أعناقهم قرامى من الخشب زتها خمسة أرتال أيضاً ، وحرّم على الفريقيين معاً ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الخمر والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من كل حلية ، وألا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلماً ، أو يركبوا حماراً لسكارى مسلم ، أو سفينة للاح مسلم ، وأن يحمل النصارى الصلبان ، واليهود الأجراس في أعناقهم عند دخول الحمام تمييزاً لهم عن المسلمين ؛ ثم أفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة ، وعالقت الصلبان على حمامات النصارى ، وقرامى الخشب على حمامات اليهود ؛ وطبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وساد بينهم ازوع والرهبة ، وأسلم كثير منهم نجياً لهذه المطاردة ونفى الكثير منهم خارج الديار المصرية ، وهدم كثير من الكنائس والأديار والبيع ونهبت ، وصدر بعد ذلك أمر جديد بهدم كنيسة قمامة (القبر المقدس) . وعانى اليهود والنصارى هذه المحنة أعواماً ، وكانت من أشد ما عانوا في ظل الدولة الإسلامية بمصر . ثم خفت وطأة المطاردة عنهم ، وأطلقوا من بعض قيودهم ، وسمح لهم بتجديد مدارس من الكنائس والبيع ، وارتد كثير ممن أسلموا منهم إلى دينه الأول ، بيد أنهم لبثوا يمانون آثار المحنة حتى وفاة الحاكم بأمر الله (١)

ولقد كانت هذه المطاردة الصارمة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكانت بلا ريب خطة مقررة ، ولم تحمل في مجموعها طابع التناقض ، ونستطيع أن نقول إنها كانت انقلاباً جوهرياً في السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى . ذلك أن الدولة الفاطمية ، كانت منذ قيامها بمصر تؤثر سياسة التسامح الديني ، وتذهب في هذا التسامح إلى أبعد مدى ، فتصطفى اليهود والنصارى ، وتولهم مناصب الثقة والنفوذ ، وكان

(١) راجع ابن خلكان . ج ٢ ص ١٦٦ - والمفريزي ج ٤ ص

٧١ و ٧٢ و ٧٣ - والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ و ١٧٨